نظرية جمالية التلقي في النقد العربي الحديث

فتيحة سريدي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار- عنابة

ملخص

يعالج هذا المقال إشكاليات تلقي النظريات الغربية وتأثيرها في النقد العربي الحديث وتطبيقاتها على النصوص الأدبية العربية . من ذلك نذكر : النقد النفسي، واللسانيات البنيوية، والسيميولوجيا،إضافة إلى نظريات القراءة وجماليات التلقي التي تلقاها النقد العربي عن طريق الترجمة بالمقام الأول، لتتوالى الدراسات لاحقا على الصعيد النظري والإجرائي . وما يهمّنا هو: إلى أي حدّ تمكن النقد العربي من مواجهة العقبات المصطلحية والمفهومية لهذه النظرية ومنبناء نظرية نقدية عربية ذات روافد ومرجعيات غربية ؟

الكلمات المفاتيح : التلقي، التأويل، قراءة، التأثير، جمالية.

Résumé

Cet article traite la problématique de la réception des théories critiques occidentales par la critique arabe moderne et leurs applications. Nous avons remarqué qu'il y a une influence considérable de ces mouvements critiques occidentales dans la critique arabe tels que la critique psychnalitique, la linguistique structurale et la sémiologie ;ainsi que les théories de lecture et l'esthétique de réception. Mais dans quelle mesure la critique arabe peut -t-elle faire face aux obstacles terminologiques et conceptuels et produire une théorie critique propre?

Mots clés :Réception, interprétation, lecture, influence, ésthétique.

Abstract

This study attempts to analyse the reception of Western critical theories from modern Arab criticism. Certainly there is a remarkable influence and expansion of these movements in the Arab criticism as : Semiotics, structuralism, psychoanalysis ... as well as theories of aesthetics reading. This latter is received in the Arab criticism through the translation first, then studies have succeeded at the theoretical and practical levels. But how did Arab criticism face the terminological and conceptual obstacles of this theory and develop an Arabic critical theory whose references are Western?

Keywords :Reception, interpretation, reading, influence, aesthetics.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

I – إشكالية المنهج في النقد العربي الحديث :

" إشكالية المنهج في النقد العربي الحديث " موضوع تناولته العديد من الكتب والدراسات الجادة*، نظرا لأهميته وحضوره المتميز والقوي على الساحة الثقافية العربية عموما . ولقد أثير حوله العديد من التساؤلات تجعل القارئ في حيرة « (...) والتشتت البالغ لما تحتويه من غموض في مختلف جوانبها الفكرية واللغوية ولما تشير إليه من انفصال عن بيئته الثقافية ونموذجه الحضاري، ويظهر ذلك الشعور عند القارئ المثقف المتخصص وغير المتخصص على السواء » [1] .

لقد تردد الدارس العربي كثيرا لإيجاد الجواب الصريح والمقنع حول مدى تكيّف الذات العربية الناقدة مع هذه المفاهيم والنظريات والمناهج الوافدة في تحليل النصوص، وهل استطاعت هذه المفاهيم النقدية الجديدة إثبات حضورها وموقعها في تربة غير تربتها ؟ وما هي النتائج المترتبة عن الفصل بين النظرية والمنهج على اعتبار أن النظرية وليدة ظروف معرفية وتاريخية مختلفة عن الظروف الحضارية التي يعرفها العالم العربي ؟ ولماذا يوسم النقد العربي إلى يومنا بالإشكالي ؟ ولماذا ما زالت هذه الصفة التي وُسِم بها في بداية تلقيه المناهج والنظريات الغربية تلازمه، بل أصبحت لصيقة به ؟ ولماذا أصبحت الحاجة ملحّة لتدريس الإرث الأدبي العربي القديم والحديث بمنظار معاصر والبحث عن مخارج جديدة ؟

تولدت لدى البعض حساسية عميقة إزاء هذه المناهج، وإزاء هذه التحولات الكبرى على الساحة الفكرية عموما، وفي المقابل ظهرت توجهات كثيرة تدعو إلى « (...) نبذ الحساسية التي يحاول البعض إشاعتها إزاء عملية التلقي هذه وفرض نوع من الحصار والعزلة على حياتنا الثقافية، فعملية التواصل والتلقي والتمثل عملية شرعية وضرورية على الدوام على الرغم من النتائج السلبية التي قد تفرزها في بعض الأحيان » [2] .

إنه ليس بخافٍ على أحد أن صفة " المنهجي " لم تقترن بالنقد العربي بفعل تواصله بالثقافة الغربية، وإنما اقترنت بكتابات الآمدي ** ومن جاء بعده. وكأننا بهذا التذكير الذي يرقى إلى حوالي القرن الرابع الهجري، نشير إلى أن الفكر النقدي العربي لامس طباعا منهجية كان ينقصها التأسيس العلمي والمصطلحي . ولأسباب تاريخية كثيرة تواصل الفكر العربي بالفكر الغربي، وتلقى الطلبة العرب النظرية النقدية الغربية على أيدي المستشرقين والنقاد في البلاد الأوروبية خاصة، ونما لديهم وعي كبير بضرورة الانطلاق من تصور ومفهوم في مقاربة النصوص وفهمها وتحليلها، وأن الإمساك بجوهر أية إشكالية لا بد أن يؤطره منهج نقدي محكم « إن الممارسة النقدية تتطلب توافر المنهج الذي هو أساس الفعل النقدي (...) إن قدرتنا على الإبداع تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار التي تلقيناها عبر التاريخ، ومن دون المناهج الصالحة تبقى النصوص خرساء نستنطقها فلا تجيب » [3] .

من هنا عُدّت إشكالية البحث عن منهج نقدي أو مناهج نقدية قادرة على استنطاق الخطاب الأدبي وقراءته بطريقة خلاقة من أبرز الإشكاليات في النقد العربي الحديث.

إن مفهوم المنهج ذاته، بل النقد المنهجي يعدّ من المفاهيم التي لم تتضح رؤيتها ولم تستقر بعد في العملية النقدية لدى غالبية النقاد العرب، وهذا لا يعني بقاء الناقد العربي « (...) إزاء المشهد النقدي الكوني سلبيا أو امتثاليا، بل كان واعيا وفاعلا وبشكل خاص في تمثله لتضاريس هذا المشهد المنهجية والإجرائية ومحاولة بلورة رؤيا نقدية أو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجموعة رؤى خصبة تفصح عن خصوصيته وجديته في إيصال القطيعة المعرفية التي بدأت على أيدي المفكرين والنقاد النهضويين إلى نهايتها المنطقية » [4] .

اقتنع الناقد العربي بضرورة الانفتاح على الآخر والاطلاع عليه في كليته، والنأي عن مبدأ المفاضلة بين المناهج، ذلك أن المنهج ليس غاية في ذاته بل وسيلة، وأن الناقد لا يسعى إلا إلى استنطاق النصوص وإلقاء أضواء جديدة عليها، وأن القراءة النقدية قد تضيف رؤى خصبة لا نتبيّنها في غياب تطبيق منهجي محكم وصارم، أو الاحتكام إلى منهج واحد اعتقادا منّا أنه الأصلح والأوفق والأبقى، وفي ذلك تأكيد لما ذهب إليه " حسين الواد " في قوله : « يشهد زماننا هذا جدالا حول المناهج في التعامل مع الظاهرة الأدبية لم يسبق له مثيل في ما نعرف من أعصار التاريخ الماضية، فكأن الساعة الآن هي ساعة إعادة النظر في ما حصل من مكاسب في طرائق فهم الأدب، أو نقده أو درسه وتدريسه » [5].

أصبحت الحاجة إلى الثقافة الحديثة ملحة، إننا نطلب منها المنهج أو القواعد المنهجية لمعرفة الأساليب الجديدة لتكون لنا سندا لمعالجة مختلف محاورنا الأدبية والفكرية، ذلك أننا لسنا بمنأى عن هذا الصخب المعرفي الذي أصبحت مواكبته ضرورة ملحة ولا مجال لفتح الباب أمام هذه الصراعات بين دعاة الانغلاق على ثقافة الذات ورفض الثقافة الحديثة ورفض الإفادة من جوانبها المختلفة، وبين دعاة التجديد والإفادة من هذه الثقافة في ضوء معايير الوعي بمعطياتنا التاريخية والعصرية « إن الاهتمام بالآخر هو اهتمام يقصد إلى البحث عن دينامية الأشياء والعالم ونبذ الجمود والاستكانة، إنه بحث عن التطور في النهاية، كما أن الفضول العلمي في النهاية هو الذي سيشوش على القائم الساكن ويحرّكه، وإذا كان من أحد في أمسّ الحاجة إلى التطلع فهو عالمنا الذي يشعر بالتفاوت الكبير بينه وبين العالم الآخر المتقدم » [6] .

لقد كان للتطورات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي شهدها العالم العربي منذ بدايات القرن العشرين الأثر الواضح في حركية النقد العربي الحديث، وفي إعادة النظر في الكثير من القناعات والتصورات الثقافية، وأصبحت الصلة بين الأدب والسياسة والمجتمع تحتل موقعا حساسا في المشهد الثقافي العربي، فكان الاطلاع على مجموعة من المناهج السياقية باكورة هذا اللقاء الثقافي (كالمنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي)، وقد صنفت في إطار هذه المناهج مجموعة من المؤلفات النقدية التي قدمت معرفة جديدة للقارئ العربي (أحمد ضيف،طه حسين، محمد مندور، شوقي ضيف..) « وإفادة كبار الأساتذة من ذلك حقيقة قائمة في أعمالهم لا تحتاج منا إلى كثير من البحث والتنقيب ولا يهمّنا الآن كيف تمت هذه الإفادة بقدر ما يهمّنا تأكيد وجودها، والنظرة السريعة إلى مؤلفات محمد مندور (...) كفيلة بأن تطلعنا على أن هؤلاء الأساتذة وأمثالهم (...) قد أفادوا من اتصال إطارهم الثقافي بإطار الثقافة الحديثة » [7] .

إن ما يمكن تسميته بالانفجار النقدي في أوروبا بدأ في الستينيات من القرن الماضي وظهور أنواع تجديدية كالنماذج النصية، ومنها : البلاغة الجديدة والأسلوبيات الحديثة والبنيوية والنقد الجديد والسيميائيات والسرديات وكالنماذج الشارحة، ومنها التأويلية وجمالية التلقي والتناصية وما إلى ذلك . إلا أن الوعي المعرفي بهذه المناهج في العالم العربي لم يبرز إلا في أواخر السبعينيات وتميز بالسيادة الواضحة لخطاب التنظير (إنتاج معرفة جديدة)، «يمكن القول إن الرؤيا المنهجية في الحركة النقدية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربية الحديثة قد راحت تزداد وضوحا بفضل التأثيرات المباشرة للانفجار النقدي والنظري في أوروبا والعالم منذ الستينات، والذي بدأ يجد صداه في الحياة النقدية العربية منتصف السبعينات وتبلور بشكل أفضل في الثمانينات عن طريق تأصيل بعض المناهج النقدية الحديثة التي اعتمدت السيميائيات واللسانيات والتأويل» [8]. إن هذا الاستحضار السريع لمجمل المناهج التي عرفها النقد العربي يجعلنا نميز بين ثلاثة مراحل في حركية هذا النقد وهي : مرحلة سيطرة المناهج السياقية، ومرحلة سيطرة المناهج النسقية، ومرحلة مناهج مابعد النص.

وعلى الرغم من التوترات المعرفية والشروخ الفكرية التي فرضتها المثاقفة بين ثقافتين شديدتي التباين : ثقافة وافدة متطورة، وثقافة مستقبلة متخلفة، فقد تمكن النقد العربي من تقديم نماذج جيدة متمثلا المناهج الحديثة نظريا وتطبيقيا . وإن شاب هذه الأعمال في بعض الأحيان الفوضى واللاوضوح، ولم تعبّر لا من قريب أو بعيد عما تطرحه النظرية في أصولها ومرجعياتها، فإن ذلك لا يعدّ انتقاصا من قيمة النقد العربي أو قيمة نقاده بقدر ما يعدّ ذلك جرأة علمية، وهذه خصوصيات كل بداية ! وكما يقال « مشوار ألف ميل يبدأ بخطوة !».

وفي خضم الحديث عن إشكالية المنهج في النقد العربي الحديث غالبا ما يرى البعض أن تعدد المناهج علامة دالة على الضياع واللااستقرار وعدم تمثل المناهج التمثل الأمثل والصحيح . ونستدل هنا بنصين أحدهما لمحمد سويرتي والثاني لتوفيق الزيدي . يقول محمد سويرتي : « أما ما استنتجناه ونحن ندرس هذه التجارب النقدية هو أن النقد العربي قد استضاء بنظريات ومناهج النقد الغربي غير أنه لم يحسن الاستضاءة، فجاءت تحليلاته عبارة عن بنيويات أخرى أقل مستوى من البنيويات الغربية » [9] .

أما توفيق الزيدي، فقد قال : « لكن ظاهرة التصرف في المناهج الغربية واضحة، فلا نجد اتباعا كليا لتلك المناهج ، وإنما استلهم نقادنا مبادئها العامة (...) ولعل هذه الظاهرة تجعل نقدنا اللساني يتسم بالسطحية » [10]. ولكن انطلاقا من هذه الزاوية يمكن أن نطرح طرحا مغايرا تماما لما ورد في النصين السالفين أو في غيرهما، وهو ألا يمكن القول إن هذا التعدد المنهجي، بل الضياع وسط هذا التعدد، يعدّ مؤشرا إيجابيا لوسم الخطاب النقدي العربي بخاصية الانفتاح والإحاطة بهوية الخطابات على اختلافها مرجعيا ومضمونيا وشكليا ؟

جاز لنا القول إذن إن المنهج في النقد العربي الحديث لم يعد مجرد إشكال، بل تحوّل إلى أزمة ! فهل فعلا أن النقد العربي يعاني من أزمة منهج؟ صحيح قد تعاني بعض الخطابات النقدية من أزمة، وذلك في مدى تمثلها للمناهج ولكن لا ينبغي أن يعمم هذا الحكم على كل الخطاب النقدي الذي لا يعدّ ممارسة متجانسة أو خطابا أحاديا بل هناك أشكال متباينة لكل واحدة منها أهدافها وخصوصياتها ومنطلقاتها، فهل يمكن أن نضع النقد الجامعي والنقد التعليمي مثلا في بوتقة واحدة، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى خطاب التفسير أو التعليق أو التنظير أو النقد الصحفي ؟

II – نظرية جمالية التلقي :

أ – **توطئة نظرية :** اقترنت نظرية جمالية التلقي « Esthétique de réception » منذ بواكيرها الأولى بما آل إليه الفكر الألماني من تطوير عبر التاريخ في مستويات أدبية ونقدية كثيرة . ولم يقتصر التلقي على ألمانيا فحسب دون غيرها من الآداب الإنسانية، فالمتفق عليه أن نظرية التلقي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اكتسبت بعدها الفلسفي والنظري وتجلياتها التطبيقية في ألمانيا التي عدت المصدر الرئيسي لأية محاولة تسعى إلى تقصي ملامح هذه النظرية النقدية التي استطاعت في زمن وجيز فرض نفسها في تاريخ الفكر النقدي والأدبي المعاصر . ومن ثم لا يمكن تجاهل جهود هذه المدرسة، وأن أي دراسة في التلقي وجمالياته لا بد أن تمرّ عبر المنجز الذي حققته المدرسة الألمانية «(...) ولو أن بعض الدراسات الفرنسية حاولت أن تجد في تاريخ أدبها ملامح تلك النظرية كما فعلت أيضا الدراسات الأنجلو أمريكية بدورها (...) إن كل الدراسات التي تعرضت لنظرية التلقي إلا وترجع إلى المرجع الألماني الذي أصل مفهوم التلقي (...) حتى أصبح التلقي بمختلف تشعباته من أهم النظريات النقدية المعاصرة بل والتواصل الأدبي في مفهومه المعاصر أو ما يعرف بتاريخ الأدب الجديد » [11] .

إن ما قدمته المدرسة الألمانية من مفاهيم ومصطلحات ينبع من مصادر فلسفية تحاورها وتمتح منها، وفي مقدمتها الظاهراتية كما هي عند هوسرل (Husserl) وإنغاردن (Ingarden) وريكور (Ricoeur) ، والهيجيلية والماركسية كما عند لوكاتش (Lukacs) والأبحاث الشكلانية كجماعة براغ ومختلف البنيويات .

ب – دوافع ميلاد نظرية جمالية التلقي : كان لذلك الجدل والصراع القائم بين مناهج نقدية ونظريات معرفية متباينة الأثر الواضح في ميلاد جمالية التلقي في النقد المعاصر . ومن أبرز هذه التصورات التي غذّت هذا النزاع وأسهمت في رسوخ نظرية التلقي وإعادة صياغة فهم جديد للأدب وطرح مشكلاته من خلال مشكلات التلقي هو التصور البنيوي « (...) كان النزاع مع التصور البنيوي للأدب أحد المنطلقات الرئيسية التي أسهمت في تعاظم دور جمالية التلقي، وقد لاقى ازدهار البنيوية في عقدي الخمسينات والستينات معارضة أخذت بالنمو شيئا فشيئا حتى أضحت نظرية تحاول أن تؤسس علما شاملا للمعنى الأدبي » [12] .

إن الاختلاف في الأصول المعرفية والغايات المنهجية التي تستند إليها كل من البنيوية ونظرية جمالية التلقي هو الذي يفرض طبيعة الممارسة التي تطبقها إحدى النظريتين في تحليل العمل الأدبي . فإذا كان مجال البنيوية وحركيتها هو النص ذاته، فإن اهتمام جمالية التلقي انصب على القارئ أو المتلقي « ومدرسة كونستانس هي أولى المحاولات الكبرى لتجديد دراسات النصوص في ضوء القراءة وكان اهتمام الباحثين قبل ذلك منصبا على كشف الروابط القائمة بين النص ومبدعه، فراح أتباع هذه المدرسة ينادون بانتقال العلاقة من الكاتب ونصه إلى العلاقة بين القارئ والنص » [13].

يكمن الخلاف الذي يطبع المقاربتين في كون المقاربة الأولى (البنيوية الفرنسية) تقف عند استظهار مكونات النص وبنياته، أي الاهتمام بمبدأ الكتابة لا غير، بينما تسعى المقاربة الثانية (التلقي الألمانية) إلى تفسير المكونات المستمرة للمعنى عبر ذلك التفاعل والتلاقي بين إنتاج النص واستقباله أدبيا.

لقد أحدثت نظرية جمالية التلقي ثورة عارمة في مجال الدراسات الأدبية والنقدية وفي تاريخ الأدب الحديث، وذلك بوصفها نمطا جديدا في الدرس الأدبي، وهي بذلك لا تنأى عن الجهود الفعالة التي قام بها من قبل الشكلانيون الروس أوما قامت به حلقة براغ، أو ما أنشأه دو سوسير (F. De Saussure) في نظرية اللغة وغيرهم في مجالات معرفية أخرى كالسيميائيات وتاريخ الأدب والأنثروبولوجيا ...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان على رأس مدرسة كونستانس (constance) كل من هانس روبرت ياوس (H.R. Jauss) وفولفجانج إيزر (W. Iser) ، وقد كان يجمعهما همّ علمي واحد واهتمام مشترك . وفي واقع الأمر لا يحيل مفهوم جمالية التلقي على نظرية واحدة « (...) بل تندرج ضمنه نظريتان مختلفتان يمكن التمييز بينهما وبوضوح رغم تداخلهما وتكاملهما، وهما نظرية التلقي ونظرية التأثير (...) وتبلغ نظرية جمالية التلقي كامل تطورها وشموليتها وخصوصياتها عندما تؤلف بين هذين الاتجاهين المتكاملين المتداخلين » [14] .

انصب اهتمام نظرية التلقي على الكيفية التي تم بها تلقي النص الأدبي عبر الزمن ومحور هذا الاهتمام هو المتلقي وحكمه على النص الأدبي في فترة تاريخية وهو ما يبرر اعتمادها على المناهج التاريخية والاجتماعية . أما نظرية التأثير « (...) فإنها تعتقد أن النص يبني بكيفية مسبقة استجابات قرائه المفترضين ويحدد بكيفية قبلية سيرورات تلقيه الممكنة ويثير ويراقب كل واحد منها بفضل قدرات التأثير التي تحركها بنياته الداخلية » [15] . وهذا ما سيتمّ تحليله لاحقا فيه وصف تجربة القارئ وخصوصياته في إطار هذه النظرية .

ج – المتلقي (القارئ) وجمالية التلقي : لقد تضمنت افتراضات نظرية التلقي دعوة صريحة إلى إعادة فهم الأدب من خلال تجربة المتلقي، وفي ذلك دلالة على تحول مركز التحليل من النص (التوجه البنيوية) إلى محور آخر هو المتلقي وإنشاء علم للمتلقي وبناء المعنى الأدبي « ويظهر ياوس أن النصوص الأدبية تفهم فهما ناقصا إن ركز المرء على كيفية إنتاجها دون أي حساب لتلقيها الأصلي ويدعو إلى نمط جديد من التاريخ الأدبي يتمثل في دور الناقد في التوسط بين كيفية إدراك النص في الماضي وكيف يدرك الآن » [16] .أما أيزر فقد عمل على بلورة مفهوم جديد يتناول علاقة القارئ بالنصوص الادبية بحيث تكون العلاقة متبادلة في اتجاهين، تعتمد على التأثير و التواصل و بذلك يتحقق تفاعل القارئ مع النص ((فالنص ذاته لا يقدم إلا مظاهر خطاطية يمكن من خلالها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص بينما يحدث الإنتاج الفعلي من خلال فعل التحقق)) [17] .

لقد استندت نظرية التلقي على المناهج النصية لأنها كانت تؤمن بالنص المفرد وبكيفية ارتباط القراء به، ولم يستبعد إيزر العوامل الاجتماعية والتاريخية في بناء النص، إلا أنه جعلها لاحقة بالمسائل النصية . وقد حاول إيزر في كتاباته أن يجيب على مجموعة من الانشغالات كان أهمها هو الكشف عن الكيفية التي يكون بها «(...) للنص معنى لدى القارئ، وفي أي الظروف يتحقق ذلك، وقد أراد على النقيض من التفسير التقليدي الذي حاول أن يوضح المعنى بوصفه نتيجة للتفاعل بين النص والقارئ، أي بوصفه أثرا يمكن ممارسته وليس موضوعا يمكن تحديده)) [18].

وإن ركزت البنيوية على النص واعتمدت على مبدأ المحايثة النصية وتجاهلت كل الملابسات التاريخية والنفسية والاجتماعية والتفافها حول النص، فإن كل ذلك أسهم في خلق افتراضات أولية حول فعل القراءة في علاقته بفعل الكتابة.

أما ياوس في نظريته القائمة على جماليات التلقي، فإنه أدخل الأساس التاريخي وأعاد النظر في الطرائق الكفيلة بدراسة التاريخ الأدبي . فالعمل الأدبي – كما يرى ياوس – لا يكتب له البقاء أو الاستمرارية إلا من خلال جمهور ما (قارئ) . فالتاريخ الأدبي إنما هو جماهير القراء المتعاقبة أكثر من تاريخ العمل الأدبي بحد ذاته « إن جوهر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العمل الفني يقوم على أساس الأثر الناتج عن حواره مع الجمهور » [19].

إن للنص الأدبي خصوصيات فنية تحقق له أدبيته، وهي مرتبطة به وملازمة له، إلا أن الكمال يوجد في الذات المتلقية للنص الأدبي، والذات القارئة تعج بزخم هائل من الرؤى الفنية والجمالية تكشف عنها كل مرة عبر الزمن، وأن ما تسمح به قدرات النص الأدبي من الاستجابة بذلك الكشف الجمالي هو ما يطلق عليه ياوس جمالية التلقي، لأن التركيز على النص سيؤدي حتما إلى افتراضات أولية حول فعل القراءة في علاقته بفعل الكتابة، وقد عبر بارت عن هذه القناعة بقوله : « فهذا القارئ لم يحظ قط باهتمام النقد الكلاسيكي ولا وجود لإنسان في الأدب عند هذا النقد، اللهم ذلك الذي يكتب (...) لقد أصبحنا اليوم نعلم أن الكتابة لا يمكن أن تنفتح على المستقبل، إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها : فميلاد القارئ رهين بموت المؤلف » [20].

د – نظرية جمالية التلقي وأفق الانتظار : لقد طرح ياوس – في محاولته للتأسيس لجمالية التلقي – تساؤلات كثيرة كان من أبرزها كيفية التمييز بين الأعمال زمن ظهورها وكيفية تلقيها في الزمن المعاصر، وهذا ما دفع به إلى وضع جملة من المفاهيم الأساسية التي قامت عليها نظريته . ومن أهم تلك المفاهيم مفهوم " أفق الانتظار " (l'horizon d'attente) الذي يعد الوسيلة المنهجية التي مكنت هذه النظرية من بثّ رؤيتها وتصورها الجديد في فهم النص وظيفيا وجماليا وتاريخيا من خلال تلقيه المستمر، فمفهوم أفق الانتظار هو الذي « (...) يسعف على بناء تاريخ الأدب في نظرية ياوس » [21] .

كان مصطلح أفق الانتظار مألوفا في الأوساط الألمانية، وقد استقاه ياوس من مجموعة من الفلاسفة كان أبرزهم هوسرل، وقد سبق توظيفه في علم النفس وعلم الاجتماع وتاريخ الفن، إلا أن تعريف ياوس لهذا المصطلح ظل غامضا ولم يحدده بدقة في كل ما كتب، وقد استخدمه ضمن جملة من العبارات المركبة منها : أفق التجربة، أفق تجربة الحياة، بنية الأفق، التعبير في الأفق« وربما ظهر مصطلح أفق التوقعات لكي يشير إلى نظام من العلاقات أو جهاز عقلي يستطيع فرد افتراضي أن يواجه به أي نص » [22] .

لقد بنى ياوس هذا المفهوم على المتلقي الأول للنص والذي يفترض فيه أن يكون على إدراك كبير بتتالي النصوص وبتعاقبها عبر الزمن وما لهذا التعاقب من أثر في الجماليات القائمة التي قد تخرج إلى مضامين ورؤى أخرى، وبالتالي تتعدى آفاق الانتظار القديمة والمعاصرة واستحداث آفاق جديدة ينفتح وفقها النص على آفاق أخرى افتراضية ومحتملة . لذا ينتج عن اندماج أفق النص مع أفق القارئ أفقا جديدا بحيث يتحقق مفهوم القارئ ((بشكل عفوي في متعة التوقعات المستجاب لها وفي التحرر من الرتابة و الإكراهات اليومية وفي التطابق المقبول عما كان مقدما أو بشكل أعم في الالتحام بفائض التجربة الذي يحمله العمل)) [23] كما يرى ياوس أن ((مفهوم التلقي يحمل معنى مزدوجا يشتمل على الاستقبال و التبادل في آن واحد)) [24] وقد اقترح ياوس ثلاثة أشكال عامة في المقاربة لإنشاء الأفق :

« 1 – التجربة المسبقة التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الذي ينتمي إليه النص .

2 – شكل وموضوعاتية الأعمال السابقة التي يفترض معرفتها .

3 – التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العملية أي التعارض بين العالم التخييلي والواقع اليومي » [25].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتوسم ياوس في المتلقي مجموعة من المواصفات أهمها المعرفة المستفيضة بدخائل النصوص وكذا التنبه إلى الخصوصيات الفنية التي تميز جنسا أدبيا عن آخر، وفي ذلك إلماح صريح إلى ضرورة سعي القارئ إلى اكتساب المعرفة دراسة وممارسة والإقبال على قراءة النصوص مدركا لخصوصياتها في الزمان وما يعتري لغتها من تغييرات واختلالات مقارنة بما هو كائن في التقاليد الأدبية القديمة . فميلاد النص الأدبي لا يعد مطلقا مظهرا جديدا ينفصل أو ينعزل عن غيره من الأعمال التي سبقته، إنه ينحت منها تارة ويقتبس تارة أخرى، وهكذا دواليك « وإذا فاستقبال نص ما ليس عملية اعتباطية بل إنه يسير وفق مخطط دال محدد، فهو إذا رؤية موجهة وهكذا، فالنص الجديد يستعيد لدى القارئ أفق انتظاره (..) قد يتغير أو يصحح أو يعاد إنتاجه ببساطة » [26].

إن هذه الأشكال الثلاثة التي اقترحها ياوس لإنشاء هذا الأفق تجعل النص الأدبي في احتكاك وفي مواجهة حقيقية ومنكشفة مع هدفه ألا وهو القارئ ، وأن النص « (...) المبدئي في ذاته والذي لم تمسسه يد القارئ لا يدخل مجال البحث، فنحن لا نلتقي إلا بالنص المؤول الذي باشره الباحث بالقراءة» [27] .

ما يمكن أن نخلص إليه عقب تتبع أهم ما وسم نظرية جمالية التلقي مع أحد روادها وهو ياوس ما يلي :

أ – السعي لبلورة مفهوم جديد للعملية الإبداعية وتشكلها عبر التاريخ.

ب – تثمين دور القارئ في إنتاج عملية القراءة.

ج – وضع مقترحات نظرية لقراءة تاريخ الأدب.

د – توجيه نظرية التلقي إلى نقد المقاربات التي لم تفصل بين المؤلف ونصه وإقصاء دور المتلقي .

لقد أعطت نظرية التلقي الحرية التامة لكل قارئ لتفسير وتأويل النص الأدبي كيفما شاء، وحسب الانطباع الذي تولد في وجدانه الجمالي، وقد يتعدى ذلك إلى خلق معانٍ مفترضة وممكنة، وهكذا ولج النقد مرحلة القارئ وتبنى مناهج جديدة اصطلح على تسميتها بما بعد البنيوية وما بعد الحداثة كالتأويلية، والتفكيكية، والسيميائية . وهكذا انتقلت سلطة الأدب من الكاتب والنص إلى القارئ الذي تكفل بمنح النص بنياته وعلاقاته ودلالاته، إنه خالق النص ومنتجه وتأكيده على مبدأ تعدد القراءات ولا نهائية الدلالة في النصوص حتى لدى القارئ الواحد.

بهذا التوجه الجديد للعملية النقدية تحولت ملكية النص من المؤلف إلى الناقد (القارئ) وتجاوز القراءات الأحادية .فإن اقترنت قراءة النص في فترة معينة بتحقيق مبدأ اللذة لدى القارئ العادي فهي اليوم تنشد ما هو أسمى وأرفع، وهو الكشف عن إيحاءات النص .

لقد وسم فعل القراءة لفترات طويلة بالاستهلاكية إلا أنه يوسم اليوم بالإنتاجية مع تحول القراءة إلى عمل إبداعي يضاهي إنتاج النص نفسه، وإن ارتبط فعل قراءة النص الأدبي بمفهوم الذوق ومدى تأثير النص في القارئ فذلك لم يعد كافيا إذ حددت شروط ومؤهلات وجب توفرها في القارئ المتلقي، فبالإضافة إلى المعرفة الأدبية والجمالية واللغوية، وجب على المتلقي أن يكون ملمّا بمجموعة من المعارف والعلوم الاجتماعية والنفسية والدينية ... والاطلاع الواسع على الآداب الأجنبية وعلى مدى تأثير الأجناس الأدبية الوافدة على الأدب والأدباء القوميين . فكل قارئ ينظر إلى النص من منظوره الخاص ومن منطلق ثقافته واستقبالاته المعرفية، ومن هنا يأتي تفسير تعددية القراءة للنموذج الإبداعي الواحد .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

III – نظرية جمالية التلقي في النقد العربي الحديث :

التفّ ثلة من الباحثين العرب حول نظرية جمالية التلقي، وأفادوا منها في إرساء دعائم نقد قويم . ولعلهم في ذلك يسيرون على خطى ما حققته جماعة كونستانس في أوائل الستينات من خلال نقدها اللاذع لطرائق التعامل مع النصوص الأدبية وهي طرائق لا تتماشى مع طموحاتها ولا تستجيب لما تنتظره ، كما تمت الإشارة إليه سابقا. فكيف وصلت إلينا هذه النظرية ؟ وكيف تجاوب الناقد العربي مع تصوراتها وأهدافها ؟ وهل وجد فيها ما يمكن أن يشبع نهمه المعرفي في تحليل النص ونقده؟

إن كل بحث حول التلقي أو حول تلاقح المعارف والثقافات أو ما يسمى بالتأثير والتأثر في الدراسات المقارنة لا بد أن يكون للترجمة الدور الفاعل فيها اطلاعا وإفادة .

لقد وصلت نظرية جمالية التلقي إلى النقد العربي مترجمة، ولا سيما الترجمات الفرنسية لمؤلفات ياوس، نذكر منها :

1 – من أجل جمالية التلقي، 1978.

- Pour une esthétique de la réception, Gallimard, Paris 1976.

2 – عن التفسير الأدبي 1988 .

- Pour une herméneutique littéraire, Gallimard, Paris 1988.

3 – ثم كتاب إيزر : فعل القراءة 1985 .

- L’acte de lecture, théorie de l’effet esthétique, Madriaga, Bruxelles 1985 (orig 1976, trad. 1978).

وجدير بالتنويه هنا أن المغرب العربي كان له فضل السبق في الاطلاع على هذه النظرية، وذلك عن طريق الترجمات الفرنسية نظرا لمحدودية التعامل في المجال المغاربي بلغات أخرى، فبالتالي ظل الاطلاع محدودا ولم يترجم منها إلا القليل النادر[***] إلا أن ما أكسب هذه النظرية بعدها التداولي في الأوساط العلمية والثقافية العربية عموما هو ما قدم من ترجمات أو ما أنجز من دراسات باللغة العربية نذكر أهمها (من حيث أسبقية ظهورها تاريخيا)

– عبد الفتاح كليطو : الأدب والغرابة (دراسة بنيوية في الأدب العربي)، دار الطليعة بيروت 1983 . طبق فيه مفهوم الانتظار لياوس على نصوص عربية .

– هناء متولي : تاريخ الأدب باعتباره تحديا لياوس، ترجم في مجلة الثقافة الأجنبية، العراق، العدد الأول، السنة الثالثة 1983 .

– نبيلة إبراهيم: القارئ والنص، نظرية التأثير والاتصال، مجلة فصول، القاهرة، المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر نوفمبر ديسمبر 1984. وظفت مفاهيم أيزر في كتابه "فعل القراءة" .

– رشيد بنحدو : قراءة القراءة ، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48–49، 1988 .

– حسين الواد : من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل، مجلة فصول، العدد الأول 1984 (قدم في هذا المقال دراسة وصفية لمفهوم القراءة كما جاء عند ياوس) .

– يوئيل يوسف عزيز : ترجم كتاب وليام راي "المعنى الأدبي"، دار المأمون بغداد 1987، وفيه فصل عن نظرية جمالية التلقي .

– فاضل ثامر : من سلطة النص إلى سلطة القارئ، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48–49، 1988 .

– أحمد بوحسن : المرجع بين النص والقارئ، مجلة المشروع، عدد 9، 1988 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– فؤاد مرعي: في العلاقة بين المبدع والنص والقارئ، مجلة الطريق، العدد 6، ديسمبر 1989.
– سلامة حجازي : ترجم كتاب بول هارنادي " ما هو النقد الأدبي "، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1989 . وفيه فصل عن جمالية التلقي .
– على الطرهوني : النص المكتوب والنص المقروء، الحياة الثقافية التونسية، عدد 58، 1990.
– جابر عصفور : ترجم كتاب رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة 1991 .
– رعد عبد الجليل جواد : ترجم كتاب نظرية الاستقبال، مقدمة نظرية لروبرت هولب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا 1992 .
– نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات، كتاب جماعي خاص بنظرية التلقي، نشر ضمن سلسلة منشورات كلية الآداب، الرباط 1993.

والقول بأسبقية الإطار المغاربي في الاطلاع على هذه النظرية ورغبة نقاده في تمثل مفاهيمها ومصطلحاتها يشير أيضا إلى تمكن الناقد المغاربي من كسر تلك الصورة النمطية التي ارتسمت في ذهن القارئ العربي فيما يتعلق بالنقد وممارسته في دول المغرب العربي، وهي أنه لا بد له من جسر عبور إلى الفكر الأجنبي وتمثل هذا الجسر – وفق منظورهم – في المشرق العربي لاعتبارات تاريخية كثيرة . إلا أنه بدءا من السبعينات تلاشت هذه الصورة بمجرد انفتاح المغاربة مباشرة على أوروبا ونقل معارفها إلى اللغة العربية، ولم تكن حاجتهم ماسة إلى وسيط ما « هذا الانفتاح جعل المغاربة يتفتحون أكثر ويتعرفون عن كثب على العديد من الاتجاهات، وعن الثقافة الغربية مباشرة، وهذا الوضع لم يكن في فترة سابقة »[28] . من هنا بدأ النقد في المغرب الغربي يأخذ بعض استقلاليته وتحرره من التبعية المشرقية، خاصة أن الظروف الثقافية والمعرفية والتأطير الجامعي عوامل أسهمت في خلق جيل جديد يترجم من اللغات الأجنبية، وبالتالي خلق تواصلا مباشرا مع مختلف الاتجاهات النقدية كالنقد الاجتماعي، والبنيوية التكوينية، والأبحاث السيميائية واللسانية، وبالتالي تحوّل الناقد المغاربي من مستقبل للنقد الأوروبي عن طريق المشارقة إلى باث لهذا النقد في العالم العربي عن طريق ترجمته تارة وتناوله بالدرس والتحليل تارة أخرى، وواقع الأبحاث النقدية المعاصرة في المغرب العربي أكبر دليل على ذلك (الأبحاث الأكاديمية الجادة، وحلقات البحث، و المجلات المتخصصة ...) .

لقد كان للوضع الإيديولوجي والسياسي في بلاد المغرب العربي الأثر الكبير في الاهتمام بهذه النظرية «ولربما وجد النقد المغربي في نظرية التلقي بديلا إيديولوجيا ... حينما وجد في هذه النظرية نوعا من الاهتمام بالقارئ والمتلقي، وهذا العنصر كثيرا ما غيّب في المقاربات الاجتماعية والإيديولوجية كما هو مغيّب في الميدان السياسي والاجتماعي العام في المغرب ... قد وجد في نظرية التلقي ما قد يرد له اعتباره ويشعره بأنه فاعل مثله مثل المؤلف والنص والمجتمع، مثله مثل الحاكم والمسؤول أيضا له دوره »[29].

فمن بوابة المغرب العربي تسربت مفاهيم جمالية التلقي إلى مختلف الأقطار العربية وصنفت دراسات (أشرنا إلى بعضها سابقا) حاول فيها أصحابها تمثل هذه النظرية في بعدها النظري والتطبيقي، وما زالت تشدّ انتباه الباحثين يوما بعد آخر لا سيما ونحن في زمن أصبح فيه الاهتمام بالقارئ وبالتأويل وبانفتاح النص وبإنتاجية النصوص ... هاجس المبدع والناقد على السواء .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كانت نظرية جمالية التلقي عتبة من العتبات الفعالة التي أوصلت النقد العربي إلى مختلف المناهج الحداثية، ولا أحد ينكر ذلك الدور الفعّال الذي قامت به في التأسيس للدرس العربي أدبيا ونقديا، بحيث يكون مسايرا لحركة النقد العربي . كما أن رغبة الدارسين في الإحاطة بهذه النظرية أسهمت بشكل واضح في ازدهار حركة الترجمة وتشجيع هذه الممارسة باعتبارها مفتاح كل تقدم فكري أو مادي، وقد أثبت الواقع أن أساس أي تطور هو هذا التواصل البشري، ودون الترجمة تبقى الأفكارو المعارف حبيسة دارها لا تؤثر ولا تتأثر. كما كان لهذه النظرية في العالم العربي الأثر في تحول السلطة من النص والمؤلف إلى هذا " القطب المهمّش " (كما وصفته مدرسة كونستانس) وهو القارئ الذي ظل مغيّبا من العملية الإبداعية والأدبية ردحا من الزمن، وبالتالي تجاوز النقد العربي مرحلة المناهج السياقية واخترق عوالم المناهج النصية .

VI –تجليات مفاهيم جمالية التلقي في نموذج نقدي عربي : كتاب " القراءة و توليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي "، لحميد لحميداني

****

يعد حميد لحميداني من النقاد العرب الذين انشغلوا بمصطلح القراءة ترجمة و تقديما و استثمارا فهو من أحد مترجمي كتاب " فعل القراءة "للمنظر الألماني فولفغانج أيزر و الذي حاول من خلاله خلق تفاعل حواري مع النقد الغربي في إطار اهتمامه بجمالية التلقي الألمانية .

يهتم هذا الكتاب بالدرجة الاولى بالمشاكل النظرية لقراءة الأدب و تأويله ويفسح المجال في غير موضع للوقوف على بعض النصوص الشعرية والسردية من أجل فهم أكثر للقضايا المطروحة في عملية القراءة . ويأتي هذا الكتاب في محاولة لإعادة النظر في علاقتنا بالنصوص الأدبية و خاصة تلك الفكرة التي تتعامل مع النص الأدبي باعتباره حاضنا لمضمون محدد وثابت عبر العصور . هذا الموقف يسوي من حيث لا يدري بين الخطاب الأدبي من جهة والخطاب العلمي واليومي من جهة ثانية باعتبارهما يتميزان بالقصدية المباشرة في حين أن الخطاب الأدبي يميل على الدوام إلى خلق أبعاد تتجاوز المظهر التعبيري للإيحاء بدلالات أخرى نحس بوجودها على وجه الاحتمال لا على وجه التصريح . وعوض أن يسعى القارئ لفهم النص والوقوف عند حدود التجلي النصي فقط عليه أن يسعى لتأويله لأن الفهم يفرض دلالة واحدة ثابتة، أما التأويل فإنه يفرض تعدد الدلالات وبالتالي تحويل علاقة القارئ – النص من الفهم إلى التأويل.

والمتصفح لهذا الكتاب يلاحظ رغبة الناقد الجامحة في خلق علاقة جديدة وغير معهودة تربط النصوص العربية بالقارئ الذي صار يمثل قطبا مهما في النقد الحديث . وقد تمحورت إشكالية البحث في هذا الكتاب حول سؤال مركزي هو كيف تجسد الحضور الفاعل لمصطلح القراءة في كتاب القراءة و توليد الدلالة لحميد لحميداني ؟ كيف يقدم لحميداني القارئ انطلاقا من فهمه للقراءة ؟ وماهي الحالات التي يتشكل فيها القارئ ؟ وماهي خصائص القارئ وأبعاده؟ وما مدى امتثال حميد لحميداني لتصورات نظرية جمالية التلقي وهو يرصد خصوصيات القراءة و تواشجها مع القارئ في تواصله مع النص العربي؟

ورد مصطلح القارئ عند لحميداني بشكل متواتر، تارة بصيغة الجمع و تارة أخرى بصيغة المفرد . وكما جاء مصطلح القراءة بدلالات متعددة فإن مصطلح القارئ يتبع أيضا تلك الدلالات بوصفه اسم فاعل يدل على المصدر، فجاء بصيغةالمعنى العام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك جاء بصيغ اصطلاحية عدة تتعدد بتعدد الحالات التي يفرضها سياق النص .

والقارئ عند لحميداني هو ذلك القارئ الذي يتفاعل مع النص وهو يمارس فعل القراءة تفاعلا إيجابيا ويستدل بطروحات أيزر الذي يرى أن الأثر الأدبي ((لا يوجد في النص ولا عند القارئ بل في نتائج التفاعل بينهما، فالنص إذن له امتداد خارج بنيته، والقارئ أيضا أثناء القراءة يكون متجاوزا لذاته. وفي هذه النقطة الموجودة خارج الحقلين معا يوجد الأثر الأدبي، إنها نقطة التفاعل التي تصنع النص من جديد، كما أنها تخلق بالنسبة للقارئ وهم شخصية جديدة تجاوز كينونته السابقة)) [30].

يسير لحميداني في تحديد خصوصيات القارئ على خطى ما رسمته جمالية التلقي الألمانية، إذ يرى أن القارئ في تواصله مع النص ينطلق من خلفية ثقافية ومرجعية تناصية تؤهله لإكساب شخصيته صفة التفرد و التميز ((فعندما يتدخل قارئ ما بحمولته الثقافية الخاصة يحدث نوعا من القطيعة بين النصوص المضمونة و دلالاتها التعيينية والنفعية)) [31] مع عدم تجاوز البنى النصيةذلك أن السياق النصي يوجه القارئ نحو حصر الدلالات دون أن يفرضها عليه حيث((يستخدم القارئ في تأويله وضعه الخاص و رغباته أو تخوفاته التي لا يريد هو نفسه أن يفصح عنها، وقد تتجاوز المسألة وعيه إلى رغباته اللاشعورية . وتلتقي في فعل القراءة نفسه رغبات القراء وظروفهم، ودوافعهم اللاشعورية مع إمكانيات التأويل المتاحة في النصوص بفضل نوعية السياق الذي إما أن يميل إلى حصر دلالات الرموز أو إطلاقها))[32].

والقارئ كما يرى لحميداني هو الذي يؤسس قراءته على أساس الجمع بين السياق الداخلي للنص والسياق الخارجي مع تفعيل حمولته المعرفية والثقافية، حيث يكون تفاعله مع النص إيجابيا وينفتح على القراءات المتعددة والتأويل وليس مجرد تلق خالص لمقصدية المؤلف .

بهذا الطرح يستعيد لحميداني مقولات إيزر وياوس حول القارئ الضمني الذي يصنع أفق توقعه من خلال قراءة النصوص ومباشرة فعل القراءة بفعل التأويل ((بحيث يقوم بوعي أو بغير وعي بتجريدها من دلالاتها النفعية المباشرة وإضفاء معاني تتلاءم مع أفق انتظاره))[33].

ذلك أن نظرية جمالية التلقي عملت منذ تأسيسها على تخليص القارئ من الدور السلبي الذي طالما لازمه بوصفه مستقبل للنص لا أكثر، وعملت على تحويله إلى متلق إيجابي بتفاعله مع النص، ذلك أن ((جمالية التلقي لا تلغي النص كما يعتقد، كما أنها لا تجعل القارئ هو كل شيء وإن كانت تعطي دون شك امتيازا للقارئ الناقد)) [34] .

لقد عانى المتلقي ردحا من الزمن من ذلك التهميش الذي مورس في حقه من قبل نظريات أدبية سابقة لجمالية التلقي التي جعلت مركزية السلطة متمحورة حول المؤلف تارة وحول النص تارة أخرى وإبعاد دور المتلقي على الرغم من أنه هو الذي يبث الحياة في النصوص وهذا ما يؤكده لحميداني في قوله ((وهذا التوازن الذي تحدثه جمالية التلقي بين حضور النص و حضور القارئ هو بالتحديد ما يسمح على الدوام بالقول بأن نتيجة القراءة وهي مضمون التأويل لا يمكن اعتبارها من مصدر خالص للنص و لا من مصدر خالص للقارئ، إنها خلاصة التفاعل بينهما)) [35] .

وهو يستعرض أنواع القراء في هذا الكتاب لا ينفي لحميداني حضورفروقات جوهرية بين مختلف القراء، وفي الوقت ذاته، نلمح من خلال تحليلاته احترامه لوجهات النظر المتباينة التي لا يمكنها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأسيس قراءة أحادية مع تأكيده على ضرورة الاستناد على السند النصي حتى لا تكون القراءة ضربا من التهويم أو المغالطة لذلك كله نجده يوضح رؤيته بقوله ((لأننا عندما نتحدث عن المتلقي كمقولة عامة نسوي بين القارئ الهاوي و المتذوق والناقد و عالم الأدب و الإيديولوجي و الباحث الإبستيمولوجي في معرفة المعرفة، مع أن ردود الأفعال والفعاليات الذهنية التي يجربها كل واحد من هؤلاء تختلف اختلافا كبيرا بين حالة وحالة فضلا عن أن مستوى خبرة وثقافة كل واحد منهم يختلف من حالة إلى أخرى)) [36].

إن نظرة النقاد إلى القارئ ليست واحدة وإنما تختلف باختلاف المنطلقات المعرفية والتوجهات الفكرية، من هنا تتأتى صعوبة تحديد خصوصيات القارئ بدقة، ذلك أن التفاوت والاختلاف بين القراء أمر يصعب تجاوزه، كما أن توصيف القارئ بسمات معينة يجعل من الصعب مطابقتها على جل القراء . وهذا ما جعل لحميداني يتبنى طرحا يفاضل فيه بين القراء حتى يعتقد بإعطاء امتياز للقارئ الناقد دون تهميش القارئ العادي ((وهذا ينذر في الواقع بزيادة التباعد بين القراء العاديين والقراء الإبستيمولوجيين، أي المتأملين في فعل القراءة نفسه على خلاف ما يظن البعض من أن نظرية التلقي ما دامت أوكلت أمر فهم النصوص إلى قرائها، فإنها دفعت بنقاد الأدب إلى متحف التاريخ . إنها في الواقع وسعت الشقة بين قراء الأدب و نقاده الذين يعتقدون أنهم يقرؤون القراءة الوحيدة الممكنة من جهة، وبين الباحثين في الكيفية التي تقرأ بها النصوص الأدبية باعتبار أن هؤلاء لا يشتغلون بمعرفة النصوص فحسب بل أيضا بمعرفة كيف نعرفها)) [37].

وبعد استعراضه للإطار النظري الذي يستند إليه (مفاهيم نظرية جمالية التلقي حول القراءة والقارئ) يؤثث لحميداني هذا الإطار بنماذج تطبيقية ومنها ثلاثية نجيب محفوظ التي تناولها لحميداني بالقراءة في الفصل الثلاث من الكتاب، وعنوان الفصل هو: مستويات القراءة، وفي عنوانه الفرعي " اختلاف التأويلات (في قراءة ثلاثية نجيب محفوظ) " . قدّم الناقد خمس قراءات كما حدد خمس مستويات للقراءة وهي :

- القراءة الاولى : وتعني أن الثلاثية تقدم إجابة عن سؤال اليسارية الماركسية .
- القراءة الثانية : وتعني أن الثلاثية تقدم إجابة عن سؤال ضرورة الإيمان بمبدأ إيديولوجي أو عقائدي، ولا يهم بعد ذلك ما إذا كان هذا الانتماء متعلق باليمين أو باليسار .
- القراءة الثالثة :وتعني أن الثلاثية تقدم إجابة عن السؤال المتعلق بصراع الأجيال و بدورة الموت والميلاد .
- القراءة الرابعة : و تعني أن الثلاثية تقدّم إجابة عن السؤال الديني و الأخلاقي، وانتقاد السلوك السياسي المنحرف .
- القراءة الخامسة : و تعني أن الثلاثية تقدّم حاليا إجابة عن سؤال الدين الأوّل في الحوار الديمقراطي، وتعلم حسن الإنصات لمختلف الأصوات المتعارضة[38].

إن هذه الدراسة المقتضبة رؤية من الداخل لمفهوم القراءة في كتاب " القراءة وتوليد الدلالة" لحميد لحميداني وما هو إلا عينة بسيطة من مجمل البحوث التي تناولت بالدرس مفهومي القارئ والقراءة على النحو الذي أرادته مدرسة جمالية التلقي الألمانية والسعي لتطبيق هذه المفاهيم والتصورات على النص العربي في شقيه الشعري والنثري .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

V – وقفة تقييمية :

إن البحث في فكر الآخر ومحاولة تبيّن خلفياته وأطره المرجعية وفهمها ليس بالأمر الهيّن ويزداد صعوبة وتعقيدا إذا ما حاول الناقد العربي تطبيق هذا الجهاز المفاهيمي المتشعب في إطاره الثقافي والأدبي . فلا عجب إذا لم يبلغ تلقي النقد العربي لجمالية التلقي حد الاكتمال والنضج وما زال يعاني من تعثرات كثيرة تجعل الكثير من الأبحاث توسم بالقصور أحيانا وبعدم وضوح الرؤية أحيانا أخرى – وقد سبق تفصيل هذه النقطة في الصفحات الأولى من هذا المقال – فمجموع الدراسات التي ذكرناها والتي حاول فيها أصحابها استلهام نظرية التلقي تأليفا وترجمة اعتراها نوع من التردد والاحتشام، وكذا التشابه الملحوظ من حيث التطرق إلى موضوع واحد وهو القارئ في علاقته بالنص، وكأن الناقد العربي ينظر إلى جمالية التلقي كإجراء وليس كنظرية، أو الأخذ بالنتائج بعيدا عن التأسيس النظري والعلمي . وهذا ما يفسر وجود هذه الدراسات في إطار مقالات، أو في إطار فصل من كتاب وكلاهما لا يمكنه استعراض هذه النظرية كما أرادها أصحابها .

كما أن اعتماد الدراسات العربية على الترجمة لنقل هذه النظرية الجديدة لم يخضع لضوابط ولم تكن لها استراتيجية واضحة تستند عليها في تعاملها مع هذه النظرية أو مع غيرها وظهر ما يسمى بعدم توحيد المصطلح ويجوز لنا تسميته أيضا بفوضى المصطلح (ورأينا كيف أن مصطلح أفق الانتظار له أكثر من ترجمة في اللغة العربية) . فالدعوة تبقى مفتوحة لتوحيد المصطلح و الاتفاق حوله، ولا بد من تكثيف الجهود وتنسيقها لفهم هذه العلوم الوافدة لأن « مفاتيح العلوم مصطلحاتها » على حد تعبير عبد السلام المسدي.

وفي غياب التوجيه المحكم تحت مظلة المؤسسات المتخصصة تبقى الجهود فردية من بعض الباحثين العرب في المغرب والمشرق العربي، وهي اجتهادات خاصة، الهدف منها مسايرة المنجز الغربي في النقد والأدب ونقل التجربة الغربية إلى الأوساط العلمية والتعليمية والجامعية العربية . وما قدم من ترجمات لهذه النظرية كان جزئيا ولم تترجم الأعمال الأساسية الكاملة لنظرية التلقي، وإنما اكتفت ببعض المقالات والدراسات المبتسرة .

كما أن وصول نظرية التلقي عن طريق الترجمة من اللغة الفرنسية يعد من الأسباب الرئيسية في عدم تمثل مختلف أبعاد هذه النظرية، لأن التلقي الحقيقي للآخر يكون في لغته وليس من خلال لغة وسيطة.

ومهما يكن من أمر فإن حضور جمالية التلقي في النقد العربي المعاصر هو بمثابة إضافة إيجابية لحركيته التفاعلية مع مختلف التيارات النقدية وخلق حوارات قد تثري الساحة النقدية بتجديد التوجهات والأطروحات النظرية مع وجوب السعي لتجاوز الرؤى الفردية التي أثرت سلبا على المصطلح خاصة وجعلته يفقد صفة الاستقرار التي تعتبر ضرورية و شرطا رئيسيا لكي يحظى بالقبول والتداول .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش و الإحالات :

1- سمير سعيد حجازي ، مشكلات الحداثة في النقد العربي، الدار الثقافية للنشر ، ط1، 2002 ، ص 23 .

2 – فاضل ثامر ، اللغة الثانية ، المركز الثقافي العربي ، (د.ط) (د.ت) ص 223 .

3 – عبد العالي بوطيب، إشكالية تأصيل المنهج في النقد الروائي العربي ، مجلة عالم الفكر ، العدد الأول ، جويلية / سبتمبر 1998، ص 9 .

4– فاضل ثامر، اللغة الثانية، ص 82.

5 – حسين الواد، في مناهج الدراسة الأدبية، سراس للنشر، 1985، ص 97 .

6 – أحمد بوحسن، نقل المفاهيم بين الترجمة والتأويل، نقل مفاهيم نظرية التلقي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 47، 1995، ص 94 .

7 – سمير سعيد، مشكلات الحداثة والنقد العربي، ص 9 .

8 – فاضل ثامر، اللغة الثانية، ص 230 .

9 – محمد سويرتي، النقد البنوي والنص الروائي، ج 2 ، منشورات إفريقيا الشرق، 1991، ص 162 .

10- توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 157-158 .

11 – أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي الحديث، ضمن نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، الدار البيضاء 1993، ص 16 .

12 – ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، الأردن، ط 1، 1997، ص 121 .

13 – حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط)، 2001، ص9 .

14 – عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2007، ص 143 .

15 – المرجع نفسه، ص 143 .

16 – ألرود أنش، جان كوهين وآخرون، نظرية الأدب في القرن 20، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1996، (د.ط) ، ص23.

17- فولفغانج أيزر، فعل القراءة ،ترجمةحميد لحميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، دط، 1995 ص 12.

18 – روبرت هولب، نظرية التلقي، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، رقم السلسلة 97، ط 1، 1997، ص135 .

19 – المرجع نفسه، ص 122 .

20– Roland BARTHES, le bruissement de la langue, ed du Seuil, Paris, 1984, p. 69.

21 – أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي الحديث، ص 30 .

22 – روبرت هولب، نظرية التلقي، ص 105 .

23-هانز روبرت ياوس، جمالية التلقي، ترجمة رشيد بنحدو، المجلس الأدبي للثقافة، القاهرة، ط1، 2004 ص136.

24-المرجع نفسه، ص 101.

25 – أحمد بوحسن، نظرية التلقي، ص 29 .

26– غسان لطفي، استثمار مفاهيم القراءة في النقد الفرنسي والعربي، دراسة أعلام ونصوص نقدية مختارة، رسالة ماجستير (مخطوط) ، جامعة منتوري قسنطينة 2006/2005، ص 9 .

27-هانس روبرت ياوس، جمالية التلقي، ص101.

28- أحمد بوحسن، نقل المفاهيم بين الترجمة و التأويل، نقل مفاهيم جمالية التلقي، ص 96 .

29- المرجع نفسه، ص 95.

30- حميد لحميداني، القراءة و توليد الدلالة، ص 73 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

31- المرجع نفسه، ص 29 .

32- المرجع نفسه، ص 88 .

33- المرجع نفسه، ص29.

34- المرجع نفسه، ص 262.

35- المرجع نفسه، ص 262.

36- المرجع نفسه، ص 213.

37- المرجع نفسه، ص 79 .

38- انظر المرجع نفسه، ص 279.

*- نذكر على سبيل المثال :

- عباس الجراري، خطاب المنهج، منشورات السفير، مكناس، المغرب، ط 1، 1990 .

- خلدون الشمعة، المنهج والمصطلح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1979 .

- سيد البحرواي، البحث في المنهج في النقد العربي الحديث، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، (د.ت) .

- سمير سعيد حجازي، إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية .

**- ويتحدد منهج الآمدي في الآتي :

- يبدأ بتحقيق النصوص الشعرية لكل من ابي تمام و البحتري و تصحيح نسبتهما، وبيان ما فيهما من اضطراب.

- يعرض لآراء النقاد في الشاعرين و حجة كل فريق في تفضيل الآخر على صاحبه .

- يتناول السرقات، فيجمع سرقات أبي تمام و يردها إلى أصلها، والأمر نفسه يقوم به مع سرقات البحتري .

يأخذ في الموازنة بين الشاعرين بطريقة موضوعية بتناول الجزئيات معنى معنى ولا يرضى بالموازنة الكلية ولكن يهتم بالموازنة الجزئية. (في هذا الموضوع انظر كتاب محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الادبي بين القديم و الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1979.

*** - من المقالات التي ترجمت عن لغات أخرى غير الفرنسية نذكرالمقال الذي ترجم من الألمانية إلى العربية المقال في المغرب، نشر في مجلة دراسات أدبية لسانية، العدد 7، 1992، وعنوان المقال هو : التأثير والتلقي : المصطلح والموضوع " ترجمة أحمد المأمون من كتاب :

Grimm K., rezeptions, geschichte, ilhelm-Fink-Verlag, 1977 (U.T.B).

**** حميد لحميداني، القراءة و توليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط1 ، 2003 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com